الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم : (العلوم الإنسانية، العلوم الاجتماعية)
المقياس: فلسفة التاريخ
المحاضرة الأولى: مفهوم فلسفة التاريخ ومجالات تطبيقاتها

الموسم الجامعي:2023/2022
المستوى: (ثانية تاريخ،ثانية فلسفة)
الأستاذ: عبد الله زين
(أستاذ محاضر ب)

تمهيد:

كما للمكان أبعاد ثلاثة هي: الطول والعرض والارتفاع، فإن للزمان أبعاده كذلك وهي: الماضي والحاضر والمستقبل، وبالنظر لأهمية الماضي في صنع الحاضر والمستقبل، فقد حظي ماضي الأمم والشعوب بالاهتمام من طرف الكثير من الباحثين والدارسين والمؤرخين على وجه التحديد ضمن إطار ما يعرف بعلم التاريخ، فما المقصود بالتاريخ ؟ و ما هو علم التاريخ ؟ وما موضوعه ؟

-تعريف التاريخ :

تدل كلمة التاريخ أو التأريخ في اللغة العربية على الإعلام بالوقت، مضافا إليه ما وقع في ذلك الوقت من أخبار ووقائع . يقال: أرّخت الكتاب ؛ أي بيّنت وقت كتابته . والتاريخ بهذا المعنى اللغوي قديم ، فقد قال الجوهري*[1] (ت 393هـ/1003 م) : **" التاريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله، يقال: أرّخت و ورّخت " .**

أما في الاصطلاح فلفظ التاريخ يطلق على " ما تعاقب على الشيء من الأحوال المختلفة، سواء أكان ذلك الشيء ماديا أم معنويا "، فنقول تاريخ الأندلس وتاريخ العلوم وتاريخ الفنون وغيرها .

تجدر الإشارة إلى أن أصل كلمة تاريخ (History) يرجع إلى لفظ (Istoria) اليوناني، والذي يعني الأشياء الجديرة بالمعرفة كالبلاد والعادات والمؤسسات السياسية ، وبعدها أصبح يعبّر عن معرفة الأحداث التي رافقت نمو الحركة الفكرية والسياسية عند الإغريق

-تعريف علم التاريخ :

شهد تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وجود الكثير ممن اهتموا بالتاريخ، ومن هؤلاء العلاّمة عبد الرحمان بن خلدون (732-808 هـ/ 1332-1406م) الذي وصف حقيقة التاريخ بقوله: **" إن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال (...) إذ و في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيه النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق " .**

يبدو أن لابن خلدون نظرة عميقة للتاريخ تختلف عن نظرة سابقيه؛ ويتضح ذلك من خلال تمييزه بين مستويين في التاريخ هما: ظاهر التاريخ و باطنه؛ فالأول يفيد أن التاريخ مجرد سرد للأحداث والوقائع، بينما الثاني يفيد أن التاريخ فرع من فروع الحكمة التي تقتضي تمحيص الأخبار وتقليبها على مختلف وجوهها، من أجل معرفة وجه الحق فيها من وجه الباطل، ومعرفة القوانين التي تحكم ظواهر

* الجوهري: هو اسماعيل ابن حماد الجوهري عالم ولغوي، يكنى بأبي نصر، أصله من فاراب " كازاخستان حاليا "، وقد أخذ العربية عن ابي سعيد السيرافي و أبي علي الفارسي، مصنف كتاب " الصحاح " .

العمران .

يعرّفه المقريزي*[2] (766-845 هـ/ 1365-1441 م) بقوله : **" إخبار عما حدث في العالم الماضي "** . كما يمكن تعريف علم التاريخ بأنه : " العلم بما تعاقب على الشيء من الأحوال المختلفة سواء أكان ذلك الشيء ماديا أو معنويا " . كما نستطيع القول بأنه : " العلم الذي يبحث في الوقائع الإنسانية الماضية " .

يبدو من خلال ما سبق أن علم التاريخ هو بحث ودراسة واستقصاء لأخبار الناس وحركتهم، والنظر في أحوالهم الماضية بغية الوقوف على القوانين التي تحكم سير تلك الأحوال .

-موضوع علم التاريخ:

يتضح من خلال تعريفات علم التاريخ أن هذا العلم يتناول الحياة الإنسانية في امتدادها الزمني على الأرض، وما يحكم هذه الحياة من عوامل وأسباب، بمعنى آخر لعلم التاريخ موضوع يتمثل في ماضي البشرية وما يتضمنه من تحولات وتبدلات .

جدير بالذكر أن التاريخ مرتبط بالتأريخ؛ والذي يعني تدوين الحوادث والوقائع، لذلك ينبغي التمييز بين مرحلتين عند الحديث عن ماضي الإنسان هما: التاريخ وما قبل التاريخ، والتاريخ يعبّر عن العصور التاريخية والتي ارتبطت بدايتها باختراع الإنسان للكتابة في بلاد ما بين النهرين على يد السومريين، الذين اخترعوا الكتابة المسمارية حوالي 3500 ق م .

-علاقة التاريخ بالفلسفة :

كانت الفلسفة اطلاعا موسوعيا يشمل جميع الميادين، وكان الفيلسوف عند الاغريق محبا للحكمة، يبتغي المعرفة لذاتها ويسعى إلى معرفة حقائق الأشياء من حوله، إلا أن الوضع تغير بمرور الزمن؛ فانفصلت عدة علوم عن الفلسفة كالرياضيات والفيزياء والبيولوجيا إضافة للعلوم الإنسانية والاجتماعية كالتاريخ وعلم الاجتماع .

اصطدم التاريخ بعد انفصاله عن الفلسفة ببعض الصعوبات والمشكلات، مما حدا بالفلسفة إلى أن تتدخل لحل تلك المشكلات، لكن تنقسم هاته المشكلات إلى شقين: شق منهجي وشق يتعلق بطبيعة التاريخ في حد ذاته . يتضح إذن وجود ارتباط وثيق بين التاريخ والفلسفة، إذ يتبادلان التأثير؛ فالتاريخ يجعل الفلسفة أكثر واقعية ويبعدها عن الخيال والتجريد، وبالمقابل تزود الفلسفة التاريخ بالنقد والتمحيص إزاء الأخبار والروايات التاريخية .

تمخض عن ارتباط التاريخ بالفلسفة فرع من الفلسفة العامة يعرف بفلسفة التاريخ، والذي يعنى بالتفلسف في قضايا التاريخ من حيث منهجه و قوانينه بغية فهم الحاضر واستشراف المستقبل .

---

* المقريزي: هو أحمد بن علي بن عبد القادر، أو العباس الحسني العبيدي تقي الدين المقريزي، مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك، من تآليفه: خطط المقريزي و السلوك في معرفة دول الملوك .

-مفهوم فلسفة التاريخ :

يرجع أول استعمال للفظ فلسفة التاريخ إلى المفكر الفرنسي " فولتير " *[3](1778-1644م)، مع أن بداياتها كانت على يد ابن خلدون، وقد قصد فولتير بهذا المصطلح دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف، أي دراسة التاريخ دراسة عقلية ناقدة ترفض الخرافات وتنقح التاريخ من الأساطير و المبالغات، وهو بذلك يرفض كل رواية غير مقبولة لدى العقل أو محتملة الشك .

أما ابن خلدون فقد أشار لفلسفة التاريخ من خلال تمييزه بين ظاهر التاريخ وباطنه، وقد وصف باطن التاريخ بأنه فرع من فروع الحكمة؛ بمعنى أنه أحد فروع الفلسفة .

تجدر الإشارة إلى أن فلسفة التاريخ تقوم على مقولتي: الكلية والعلية ؛ فالأولى تعني أن فيلسوف التاريخ لا ينظر إلى الأحداث والوقائع الجزئية كالثورة التي قوم في هذا البلد أو ذاك ، بل ينظر للماضي وحوادثه نظرة شمولية، محاولا الوقوف على معرفة الأسباب العامة لحوادث الماضي ومجرياته . أما العلية؛ فتعني أن فيلسوف التاريخ يتجاوز النظرة السردية إلى تبرير الحوادث وتعليلها تعليلا عقليا منطقيا، بغية فهم منطق الحوادث التاريخية، ففلسفة التاريخ تسعى إلى جعل حوادث التاريخ مفهومة عقلا ومتحررة من سيطرة الأسطورة والخرافة .

-مجالات تطبيقات فلسفة التاريخ:

إذا كانت فلسفة التاريخ تستمد صفة الواقعية من التاريخ؛ فمعنى ذلك أن هذا الحقل المعرفي يعتبر من الفروع الفلسفية الأكثر اقترابا من الواقع ، وهو بذلك يتقاطع مع مجالات معرفية أخرى تشكل مجالات تطبق فيها فلسفة التاريخ، أبرزها: فلسفة الحضارة، الفلسفة السياسية، وعلم المستقبليات وغيرها من المجالات الأخرى .

1-فلسفة الحضارة:

تعني النظرة الفلسفية للحضارة، ومحاولة معرفة أسباب قيامها وانهيارها . لقد أصبحت الحضارة اليوم مبحثا من مباحث الدراسات التاريخية المتخصصة، حيث لم يعد التاريخ يهتم بأخبار المعارك والغزوات وسير الملوك العظماء فقط، بل يهتم بدراسة مختلف انتاجات الفكر الانساني وشتى مظاهر الحياة اليومية، ولقد بدأ المؤرخون أخيرا يجعلون من الحضارات موضوعا لدراساتهم لأن ذلك يعينهم على معرفة الأسباب المؤدية إلى قيامها والعوامل المؤثرة في تدهورها وانهيارها، وقد تحدث بعض فلاسفة التاريخ عن موضوع الحضارة مثل ابن خلدون ومالك بن نبي وكذا بعض المفكرين الغربيين مثل المؤرخ الانجليزي أرنولد توينبي وغيره من الغربيين .

2-**الفلسفة السياسية:**

تلتقي الفلسفة السياسية مع فلسفة التاريخ في صفة الواقعية، بل يعتمد الفلاسفة السياسيون على أبحاث فلاسفة التاريخ في صياغة نظرياتهم الفلسفية؛ ذلك أن السياسة تشكل مجال اهتمام من طرف المؤرخين وفلاسفة التاريخ، فنجد الكثير من الذين كتبوا في مجال الفلسفة السياسية قد استثمروا نتائج أبحاث فلاسفة التاريخ، ومن هؤلاء المفكر السياسي الإيطالي ميكيافيللي من خلال كتابه " الأمير ".

---

*فولتير هو فرانسوا ماريه أرويه(Francois Marrie Arouet) كاتب وفيلسوف فرنسي شهير، عاش في عصر التوير، عرف بدفاعه عن الحريات المدنية، خاصة حرية العقيدة والمساواة وكرامة الإنسان، من أبرز أعماله: خطابات فلسفية على الانجليز .

3-علم المستقبليات:

إذا كان هذا العلم يهتم بالبحث في المستقبل، فإنه يضطر إلى الاستعانة بفلسفة التاريخ وأبحاثها في هذا المجال؛ ذلك أن هاته الأخيرة تستطيع من خلالها دراستها للماضي أن تقف على القوانين التي تحكم سيره، ومن ثم تستطيع استشراف المستقبل . يعرف علم المستقبليات بالدراسات الاستراتيتيجة التي تستشرف المستقبل انطلاقا من معطيات الحاضر، وفي ذلك تستعين بفلسفة التاريخ .

***المراجع:**

-في فلسفة التاريخ / أحمد محمود صبحي

-التاريخ وكيف يفسرونه / اليجري ويدجري

-في فلسفة التاريخ / خاليد فؤاد طحطح

-فلسفة التاريخ : جدل البداية والنهاية والعود الدائم /علي عبود المحمداوي

-المفصل في فلسفة التاريخ / هاشم يحي الملاح

-المقدمة / عبد الرحمان بن خلدون

-فلسفة التاريخ: مدخل إلى النماذج التفسيرية للتاريخ الإنساني / عبد الحليم مهور باشه

-علم التاريخ وفلسفته في فكر ابن خلدون / جميل موسى النجار

-العقل في التاريخ / هيجل

-الأيديولوجيا الألمانية / ماركس وانجلز

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية — الموسم الجامعي:2023/2022
قسم العلوم الاجتماعية — المستوى: ثانية فلسفة
المقياس: فلسفة التاريخ — الأستاذ: عبد الله زين (أستاذ محاضر ب)

المحاضرة الثانية: التاريخ والأسطورة (علاقة التاريخ بالأسطورة من خلال الأعمال التاريخية الكبرى- هيرودوت-)

تمهيد:

إن فضول الإنسان دفعه منذ القدم إلى التفكير في ما حوله، ومحاولة طرح تفسيرات لذلك (الكون، المصير، أصل الوجود وغيرها)، و قد تعددت تلك التفسيرات نتيجة لتعدد أنماط التفكير البشري؛ كالتفكير الأسطوري والتفكير الديني والتفكير الفلسفي والتفكير العلمي .

فما المقصود بالأسطورة ؟ وما علاقتها بالتاريخ عموما والتاريخ عند الإغريق خصوصا ؟

الأساطير في اللغة العربية جمعٌ لكلمة أُسطورة، ويُراد بها الكلام المُلَفّق الذي لا أصل له، أما معنى أساطير الأولين في القرآن الكريم فهي: ما سطّره وكتبه الأولون من أباطيل وترّهات، أو كل شيء كتبوه وكان كذبًا .

بعد التعرف على معنى أساطير الأولين في القرآن الكريم لا بدّ من ذكر المواضع من القرآن الكريم التي وردت فيها هذه العبارة، فقد وردت هذه العبارة في تسعة مواضع وفيما يأتي بيانٌ لهذه الآيات:

الموضع الأول في سورة الأنفال: حيث قال الله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[٨] الموضع الثاني سورة النحل: حيث قال الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[٩] الموضع الثالث سورة المؤمنون: حيث قال الله تعالى: {لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[١٠] الموضع الرابع سورة الفرقان: حيث قال الله تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}.[١١] الموضع الخامس سورة الأحقاف: حيث قال الله تعالى: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[١٢] الموضع السادس سورة المطففين: حيث قال الله تعالى: {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[١٣] الموضع السابع سورة النمل: حيث قال الله تعالى:{لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[١٤] الموضع الثامن سورة القلم: حيث قال الله تعالى: {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } .

1-الأسطورة والتاريخ في بلاد الاغريق:

تعتبر الأسطورة واقعة شديدة التعقيد، وتشير إلى أحداث تاريخية حدثت في الزمن السحيق، وقد اختلف الباحثون في تعريفها؛ إذ عرفها مرسيا إلياد بقوله: " الأسطورة قصة تروي تاريخا مقدّسا، تروي حدثا جرى في الزمن البدائي، هو زمن البدايات " .

ولرفع اللبس عن الأسطورة ينبغي تمييز النص الأسطوري عن غيره من النصوص من خلال جملة من المعايير هي:

-من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات وما إليها، وغالبا ما تجري صياغتها في قالب شعري يساعد على ترتيلها في المناسبات الطقسية وتداولها شفاهة .

-يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة .

-لا يعرف للأسطورة مؤلف معين؛ لأنها ليست نتاج خيال فردي، بل ظاهرة جمعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة وعواطفها وتأملاتها، ولا تمنع هذه الشخصية الجمعية للأسطورة من خضوعها لتأثير شخصيات روحية متفوقة .

-يلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية في الأسطورة، فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكملا لا رئيسيا .

-تتميز الموضوعات التي تدور حولها الأسطورة بالجدية و الشمولية، وذلك مثل التكوين والأصول، والموت والعالم الآخر وسرد الوجود، وما إلى ذلك من مسائل التقطتها الفلسفة فيما بعد .

-تتمتع الأسطورة بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم .

وبالاعتماد على المعايير السالفة الذكر، يمكن أن نعرف الأسطورة بأنها: " حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان " .

لقد كان للتفكير الأسطوري تأثير كبير على مجالات معرفية مختلفة ومنها التاريخ عند القدماء، ومنهم الاغريق؛ فقد كان خلق الأساطير أول خطوة خطاها الإنسان اليوناني القديم في طريق الإبداع واكتشاف نفسه، وعند إقدامنا على معالجة الأسطورة الإغريقية نجد أنها كانت موضوع عمل دائم لم يتوقف في وصف تلك الحياة التي كانت تعيشها الآلهة وصفاتها الثابتة كالجمال والقدرة على الظهور بأي مظهر والخلود وغيرها .

إن الأسطورة والتاريخ ينشآن عن التوق إلى معرفة أصل الحاضر، ولكنهما يختلفان في القيمة التي ننسبها على ذلك الأصل؛ فهو أصل قدسي عند الأسطورة، وأصل دنيوي مفرغ من الأسطورة عند التاريخ، كما أن الأسطورة تنظر للتاريخ باعتباره تجل للمشيئة الإلهية، أما التاريخ ينظر لموضوعه باعتباره تجل للإرادة الإنسانية في جدليتها مع قوانين فاعلة في حياة الإنسان الاجتماعية .

لم يعرف الاغريق قصص و أساطير الآلهة فقط، بل كانت هناك قصصا وأساطيرا يختلط فيها الإنساني بما فوق الإنساني تروي وتقدم إجابات عن الخلق والكون، كما قدمت أشعارا تسرد الحروب اليونانية وبطولات الأولين، فالأسطورة بوصفها شكلا من أشكال المعرفة التاريخية، كانت في الوقت نفسه مصدرا للقواعد والمبادئ الدنيوية .

إذا أردنا أن نقابل بين الأسطورة والعقل أمكن القول أن كلمة أسطورة تعارض العقل " اللوغوس " ، كما أن كلمة خيال تعارض كلمة منطق، أو كما الكلمة التي تروي تعارض الكلمة التي تبرهن . من هنا فإن كلمتي: لوغوس و ميثوس، هما وظيفتان أساسيتان إلا أنهما مختلفتان؛ فمهمة اللوغوس الاستدلال البرهاني والإقناع ومطابقة المنطق، بينما الأسطورة لا غاية لها إلا ذاتها نصدقها أولا بإيمان لدينا إذا أحببنا تصديقها، وهذا ما سنشهده في تفسير التاريخ عند الاغريق، أين نجد الميثوس تمتزج مع اللوغوس في كل الأحداث التاريخية سواء أكانت هذه الأحداث من فعل الآلهة أو من فعل الإنسان أو كانت تجمع بين الآلهة والإنسان في أحداث مشتركة، لذلك يقال أن الأسطورة لم تخضع للتحليل الطويل والناقد كما خضعت له في الثقافة اليونانية، حتى خرجت منه منزوعة " الأسطورة " جذريا والقداسة التي كانت تتمتع بها .

2-بدايات الوعي بالتاريخ عند الاغريق:

تطور الوعي بالتاريخ عند الاغريق تدريجيا بانتقاله من الأسطورة إلى العقل، وقد مر بمحطات هامة تمثلها ثلاث شخصيات فكرية بارزة في الثقافة التاريخية اليونانية وهي: هوميروس- هزيود – هيرودوت .

أ-هوميروس (Homère / 850 ق م):

هو شاعر ملحمي اغريقي أسطوري، عاش في القرن التاسع قبل الميلاد (850 ق م)، تنسب له ملحمتا (الإلياذة و الأوديسة)، وقد صور من خلال ملحمتيه بطولات الإغريق خلال حروبهم ومنها حرب طروادة . كما يعتبر "هوميروس" أشهر شعراء الملاحم ورمز الوطنية والمصدر الموثوق به لتاريخ الإغريق القديم ، وقد أشاد به أفلاطون حيث يقول: « أن من تسنى له فرصة فهم هوميروس يهيمن على أساليب الفنون جميعا هيمنة تامة » .

تجدر الإشارة إلى أن "هوميروس" ليس مؤرخا يسجل كل الوقائع التي حدثت في الحرب بكل دقة، بل هو شاعر وفنان وله أن يختار من الأحداث ما يناسب ملحمته، وقد كان هدفه التغني بأمجاد الأبطال .

ب-هزيود (Hesiode/ 777-848 ق م):

هزيود شاعر إغريقي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، امتاز بروح تعليمية وبالبحث عن الحقيقة، من أعماله: قصيدة " الأعمال والأيام " و " أنساب الآلهة " . تناول في القصيدة الأولى مجموعة من الدروس والنصائح في الأخلاق، كما يصف فيها كيف تعاقبت خمسة عصور في تاريخ المجتمع البشري وهي: العصر الذهبي، العصر الفضي، العصر البرونزي، العصر البطولي، العصر الحديدي .

يرى "هزيود" على خلاف "هوميروس" أنه ينبغي الفصل بين الآلهة كآلهة وبين الآلهة كموضوع للعبادة، كما نجد عنده تنظيما أوضح وأكثر عقلانية لعلاقات الآلهة بعضهم ببعض، مما جعل " اتسلر " يقول: « إن هزيود يقع على الخط الفاصل بين عصرين: عصر التفكير الديني الأسطوري، وعصر التفكير التأملي بوسيلته العقل » .

3-التأسيس لعلم التاريخ عند الإغريق: (هيرودوت – Herodotus / 484-425 ق م)

في هذه المرحلة اتضحت ملامح الكتابة التاريخية في صورة تكاد تكون خالية من سطوة الأسطورة؛ بحيث أصبح تفسير التاريخ قائما على أساس عقلي منطقي، ويمثل هذه المرحلة بعض المؤرخين البارزين مثل: هيكاتيوس الملطي و هيرودوت و تيوكيديدس .

أ-هيكاتيوس الملطي Hecataeus:

هيكاتيوس مؤرخ اغريقي ولد بمدينة ملطية حوالي سنة 546 ق م، وقد اشتهرت هذه المدينة بالكتابة النثرية والفلسفية الإغريقية الناقدة . كتب هيكاتيوس حول أصل الشعب الإغريقي في تحولاته الأولى .

إذا كان لهيكاتيوس دوره في تطوير الكتابة التاريخية عند الإغريق، فإنها تتجلى فيما يلي:

-جعل الحقيقة مقياسا لما يرد من روايات تاريخية .

-اتخاذ اتجاه نقدي صريح تجاه الأساطير اليونانية حول نشأة الخلق .

-شكّل كتابه المسمى: " الأنساب " أول محاولة يقترب بها كاتب من طبيعة النقد التاريخي اقترابا شعوريا عن وعي صادق، لذلك يقول: " إن ما أدوّنه هنا، هي الرواية التي اعتبرها صادقة وحقيقية، لأن قصص الإغريق عديدة، وهي في رأيي تبعث على السخرية " .

ب-هيرودوت Herodotus : (484-425 ق م)

لا جدل في أن التاريخ لم يكن علما قائما بذاته إلى غاية "هيرودوت"، لكنه مع ذلك مدين إلى سابقيه مثل "هوميروس" و "هزيود" والعهد الكلاسيكي اليوناني بظهور وعي تدريجي الوضوح، بحيث أصبح أكثر اهتماما بالبشر وبعدا عن الآلهة، لكن "هيرودوت" الذي ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد أعطى البداية الفعلية لاهتمام اليونان المباشر بالتاريخ، فقد بدأ التاريخ يتخلص من سطوة الأسطورة بواسطة لمحات ذكية من التفكير التاريخي، يقول "هيرودوت" في مقدمة كتابه :« هذه أبحاث هيرودوت الهاليكارناسي، كتبها ليبقى ذكر أفعال الرجال حيّا ومآثر الإغريق والبرابرة وأعمالهم المجيدة خالدا، وهدف منها توثيق أسباب النزاع بينهم » .

ما يمكن أن نستشفه من قول "هيرودوت"، ومن خلال كتابه " تاريخ هيرودوت " ما يلي:

-أنه لم يقتصر على جمع الحقائق والروايات، وإنما الكشف عن حقيقة ما حدث في الماضي .

-ما يريد تقديمه في هذا التاريخ، لا يهتم بالآلهة وأعمالها، بل بالإنجازات التي قام بها الإنسان (الإغريق والبرابرة)

-تقديم دراسة اجتماعية تاريخية لأحداث إنسانية لها ما يبررها، أو يبرر القيام بها في تفكير الإنسان، تختلف عن دراسة الأساطير ولا تستند إلى سلطة الآلهة .

-سمى كتابه بالتاريخ أو التحقيق، ويعني التمحيص والتفحص أو البحث، وبذلك نجد أن مضمون الكتاب يشتمل على معلومات جغرافية وتاريخية ودينية وقصصية .

-استعمال أسلوب النثر في كتابة التاريخ، خلافا لسابقيه الذين استعملوا الملاحم .

-اعتمد في كتابة تاريخه على رحلات واسعة في أرجاء الإمبراطورية الفارسية من بابل إلى مصر، ووصف عادات أهلها .

-اعتمد على التفكير العقلاني وعدم الثقة التامة في الروايات التقليدية .

إن الموضوعية التاريخية تكاملت عند "هيرودوت" في تفسيره للأحداث التاريخية مع فلسفته التاريخية التي استندت إلى إيمانه بتغير الخط الذي يبدو في عرضه التاريخي للأحداث، وكأنها أقدار إلهية يؤدي كل فرد أو كل شعب فيها حسب قدرته وفي نفس الوقت، فعلى سبيل المثال يرجع هلاك أهل طروادة حسب "هيرودوت" : « إلى تدبير إلهي ليتضح للناس من هلاك طروادة الذريع، أن الآلهة تنزل العقوبات الصارمة جزاء وفاقا للأخطاء الجسيمة، ذلك هو رأيي الشخصي » .

---

*حرب طروادة:(1194-1184 ق م) هي حرب وقعت بين الإغريق وأهل طروادة، وقد دامت عشر سنوات، وهي واحدة من أشهر الحروب في التاريخ، وذلك لخلودها في ملحمتي هوميروس (الإلياذة والأوديسة) اللتان تحدثتا عن بعض أحداث حرب طروادة .

* طروادة (Troy): هي مدينة بحرية تقع في آسيا الصغرى غنية، تحكي الأسطورة أن " بوسايدن" إله البحر بناها برفقة " أبولو " إله الشعر والفنون .

تعيد الأساطير أسباب حرب طروادة إلى مشاحنة إلهية بين آلهة الأوليمب الإثني عشر، وخلاف بين الربات الثلاث: هيرا، أفروديت، أثينا . حول الأجمل منهن وقيام ملك طروادة " باريس " بخطف هيلين ملكة أسبارطة وزوجة ميلاوس .

ج- تيوكيديدس Thycydides :

تيوكيديدس مؤرخ يوناني عاش ما بين سنتي (471-425 ق م)، عاصر في جزء من حياته المؤرخ هيرودوت، لذلك يلتقي معه في إضفاء صفة العلمية على التاريخ؛ إذ حاول جاهدا تحقيق قدر من الموضوعية والحياد في كتاباته التاريخية، وكذا استبعاد الأفكار الأسطورية من التاريخ، إلا أنه يختلف عن هيرودوت في بعض النقاط منها :

-حصر مجال التاريخ في نطاق ضيق (حرب البلوبونيز التي وقعت بين مدينتي أسبرطة وأثينا) .

-توخي الدقة في التأريخ للحوادث (تحديد الموضوع الذي يؤرخ له، وتحديد أسباب اختيار موضوعه) .

-خصوصية الموضوع (الصراع الداخلي بين اليونانيين)، فرضت عليه التزام الموضوعية والحياد في عرض الأحداث (عدم انحياز تيوكيديدس لأثينا ولزعيمه بركليس رغم إخلاصه له)، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على علمية الفكر الخلدوني عند تيوكيديدس .

-كتب تأريخه بصورة أشبه ما تكون بالكتابات الإبقراطية الطبية؛ بحيث خلا كتابه من تمجيد الآلهة والمعجزات، كما عنى بتحقيق الأحداث تحقيقا علميا وأكثر تركيزا في روايتها .

-التركيز على النقد والتمحيص؛ " إذ أكد أن قيمة العمل التاريخي تعتمد على صدق ما يرد فيه من روايات ومطابقتها للحقيقة، أكثر مما تعتمد على التسلية في سرد الاحداث " . كما كان تيوكيديدس يعنى كثيرا بتقصي الحوادث ومحاولة معرفة أسبابها .

-اعتمد في جمع المادة التاريخية على مصادر مختلفة (معايشته للأحداث، المعلومات التي استمدها من الرواة، بعض الوثائق التي حصل عليها، مثل نصوص معاهدة انيكياس، الشواهد الأثرية التي تدل على أصول اليونانيين .

-لم ينظر للتاريخ كعلم تتمثل وظيفته في جلاء الحاضر وتوضيحه، وإنما كعلم يرسم طريق المستقبل؛ بحيث كان يقول بدورة الشؤون البشرية، حيث يقول: " العلم الدقيق بحوادث الماضي قد يفيد لأن من المحتمل أن يحدث في المستقبل شيء من قبيل ما حدث في الماضي " . (التاريخ يعيد نفسه) .

أخيرا يمكن القول بأنه على الرغم من وجود تفاوت بين مؤرخي اليونان، في القدرات العقلية والمنهجية وأسلوب التأريخ، إلا أنه كان لهم دور كبير في تنامي الوعي التاريخي لدى الإغريق، وكذا تنامي اهتمامهم بماضيهم التليد، الذي يشكّل مقوما من مقومات الحضارة اليونانية .

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم العلوم الاجتماعية
المقياس: فلسفة التاريخ

الموسم الجامعي:2023/2022
المستوى: ثانية فلسفة
الأستاذ: عبد الله زين

المحاضرة الثالثة: الله والتاريخ (تحليل الرؤية التي تجعل من التاريخ مجرّد أحداث صنعها الله)

تمهيد:

إذا كانت المسيحية قد ظهرت منذ القرن الأول الميلادي واستمرت إلى اليوم كديانة تسود أوروبا وغيرها من القارات الأخرى، فهل حافظت على شكلها القديم ؟

لم تحافظ على شكلها القديم، وإنما تحولت من ديانة لها أتباعها ومعتنقوها في نهاية الحضارة الرومانية، إلى رؤية للعالم وأيديولوجيا حكمت الغرب طيلة قرون؛ أي تحولت المسيحية من ميتافيزيقا دينية إلى ابستيمي معرفي ساد العصر الوسيط في أوروبا وخضعت كل المعارف الإنسانية لنصوصها المقدسة وتأويلات رجال الدين والكنيسة، ومن هذا المنطلق خضعت الكتابة التاريخية إلى تفسير لاهوتي؛ بمعنى تفسير الأحداث التاريخية بإرجاعها إلى الله، فالله هو صانع التاريخ، والتاريخ مجرد أحداث صنعها الله .

ضمن هذا السياق يأتي الحديث عن المسيحية وعن الفلاسفة المسيحيين وعلى رأسهم القديس " أوغسطين "، الذي يعتبر أحد أكبر رجال المسيحية، وأهم منظري فلسفة التاريخ في العصر الوسيط . فما المقصود بالمسيحية ؟ وما أهم مبادئها ؟

-تعريف المسيحية:

هي إحدى الديانات السماوية، التي يعتبر يسوع المسيح الشخصية الأساسية فيها، والمؤسس لها، أما كتابها المقدس، فهو الإنجيل (العهد الجديد)؛ وهو مجموعة التعاليم التي أتى بها يسوع المسيح ونشرها بين أتباعه، ثم قام تلاميذ المسيح الإثنا عشر بكتابة هذه التعاليم ونشرها في الأصقاع .

ظهرت المسيحية ببداية قيام المسيح بنشر رسالته في عام 25 ميلادي تقريبا، حيث ولد المسيح في السنة الخامسة قبل الميلاد، وبدأ خدمته الرسولية وهو في سن الثلاثين، ثم رفع إلى السماء في سن الثالثة والثلاثين .

انبثقت المسيحية من الديانة اليهودية، وأخذت الكثير من المعالم اليهودية، كوجود إله خالق واحد، والإيمان بالمسيح ابن الله الحي، والصلاة والقراءة من كتاب مقدس، ولعل محور العقيدة المسيحية، يتمثل بالمسيح وعمله الكامل على الصليب لفداء المؤمنين . يتفرع من المسيحية عدة مذاهب أهمها: الكاثوليكية، والأرثذوكسية (شرقية، غربية)، إضافة إلى البروتستانتية .

أما يسوع المسيح، فهو عيسى عليه السلام، الذي ولد في بيت لحم، وترعرع في مدينة الناصرة (فلسطين) أو " أورشيلم " ،وهو نبي من أنبياء الله، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، في عديد الآيات، كقوله تعالى: " وإذ قال عيسى بن مريم، يا بني إسرائيل، إني رسول الله إليكم..." . الأعراف/ 157.

أما لفظ المسيح، فقد ورد في عدة مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: " إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه، اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها..." آل عمران/ 45 .

أما معنى اسمي " المسيح " و " يسوع "؛ فحسب المسيحية، السيد المسيح ليس مجرد نبي، وإنما هو الإله المتجسد، الذي حبل به من روح الله، وهو المرسل من الله لأجل خلاص العالم وفدائه من الخطيئة، وهو الذي يطلق عليه الكتاب المقدس: " ابن الله " .

أما كلمة يسوع؛ فمعناها " الله هو الخلاص "، وكلمة المسيح، تعني " الممسوح "، أي الممسوح من الله، الذي جاء لهداية الشعب السائر في الظلمة .

أما بخصوص مبادئ المسيحية، فيمكن إيجازها في أن الحقيقة تقاس بمعيار الديانة المسيحية، فما أقرته المسيحية وما توافق مع تعاليمها فهو حق، وأما غير ذلك فهو باطل وغير حقيقي، كما قالت المسيحية بعقيدة التثليث (الله، الإبن، روح القدس) .

أما بخصوص العقيدة المسيحية، فتقوم على مفاهيم أساسية وخطوط عريضة هي:
*التجسد الإلهي في المسيح (عيسى عليه السلام) .
*صلب المسيح الذي أدى إلى موته، هو فدية عن المؤمنين، ولرفع خطيئة العالم ؛ إذ يدعي المسيحيون أن الله قد ضحى بولده المسيح، كي ينقذ ويفدي البشرية من الخطيئة التي ورثوها عن آدم عليه السلام، وهم بذلك يثبتون عقيدة الصلب والفداء .
*قيامة المسيح المجيدة تعطي الإنسان الخاطئ فرصة للنجاة من العقاب، ونيل الحياة الأبدية .
*الثالوث: إله واحد يتمثل في ثلاثة أقانيم أو كينونات في ذات الله، هي: الأب، الابن، الروح القدس .
*المسيح هو الله الذي ظهر في الجسد، تجسّد من مريم العذراء، بشرا، ويؤمنون أن المسيح ولد من مريم العذراء، بقوة روح الله، عندما حل الروح القدس عليها، فأخذ منها إنسانيته .
*يؤمنون أن عيسى هو المسيح، الذي انتظره اليهود، وهو وريث عرش داوود، وأن له معجزات هي: (إقامة الأموات، تطهير البرص، تسكين البحر، إطعام الألوف ...) .
أما الكتاب المقدس، فينقسم لدى المسيحيين إلى قسمين هما: العهد القديم (التوراة)، والذي يختلف عن التوراة لدى اليهود . والعهد الجديد (الإنجيل)، ويتكون من أربعة أناجيل هي: (متّى، مرقس، لوقا، يوحنا) .
اتبع المسيح في حياته على الأرض، عدد قليل من اليهود، هم تلاميذه، وبعد هذه المرحلة، شهدت المسيحية تحول أكبر أحد أعدائها، وهو اليهودي المعروف بـ " شاوول الطرطوسي " نسبة إلى طرطوس، فأصبح اسمه " بولس " (الرسول)، وتحول إلى أهم ناشري المسيحية بين الأمم (الرومان) .
تعرضت المسيحية للاضطهاد، من طرف بعض قياصرة الرومان، ولكن بعد أن تحول قسطنطين عن الوثنية إلى المسيحية، أصبحت هاته الأخيرة دين الدولة الرومانية، و ديانة الغرب الأوروبي عموما .

-لمحة عن حياة أوغسطين:

هو أوريليوس أوغسطينوس، ولد سنة 354 م في تاغشطا، يعد من أشهر آباء الكنيسة اللاتنية، والده باتريسيوس، وقد كان وثنيا، أما أمه مونيكا، وقد كانت مسيحية، ترك الدراسة مبكرا، وعاش طفولة مضطربة، تقلد بعض المراتب في الكنيسة كالمعمودية و الكهنوتية والأسقفية، استمر كأسقف إلى أن توفي سنة 430 م .
ترك أوغسطين عدة مؤلفات منها: الاعترافات، مدينة الله، العقيدة المسيحية، في الثالوث، في النظام، في خلود النفس وغيرها من المؤلفات .

-فلسفة أوغسطين:

تعبر فلسفة أوغسطين عن عقيدته المسيحية؛ بحيث أنها جاءت تنم عن تسلسل رائع يصل إلى اكتشاف الله، وهي تعبّر عن جهد إيماني مسيحي يفتش كي يطلق العنان لتعقل الإيمان لمحتواه بواسطة تقنية فلسفية، سماتها الأساسية مستوحاة من الأفلاطونية المحدثة، وبالتحديد من أفلوطين .
تناول أوغسطين في فلسفته، جملة من المشكلات: كمشكلة الله، المعرفة، النفس، السياسة، التاريخ .

-فلسفته في التاريخ:

نظر أوغسطين أولا: إلى أن التاريخ، بوصفه تعاملا مع تاريخ خاص، فهو يتخذ من العقيدة المسيحية مصدرا لتفسير التاريخ، ويتخذ من التاريخ دليلا على صدق العقيدة المسيحية، وهو يتعامل انطلاقا من تلك المعايير، في أنه يفهم التاريخ على أنه: ظاهر وباطن، والتاريخ الظاهر، هو رمز للتاريخ الباطن، والتاريخ الباطن أو المقدس، يفسر التاريخ الظاهري، لهذا اعتمد هذا التصور في إثبات الحقيقة التاريخية .
جاء أوغسطين بفلسفة للتاريخ، ترتكز على ركيزة الديانة المسيحية؛ بحيث فسر التاريخ تفسيرا دينيا لاهوتيا، وجاء بنموذج في فلسفة التاريخ، يعرف بنظرية العناية الإلهية .
لقد جاءت أفكار أوغسطين في أهم كتابين: مدينة الله، الاعترافات، حيث دافع فيهما عن المسيحية، وأكد فيهما أن العناية الإلهية هي التي تسير أحداث التاريخ وغاياتها . وتتضح رؤية أوغسطين في ثلاث نقاط هي: علم التاريخ في خدمة اللاهوت المسيحي- التقسيم الثنائي للتاريخ (مدينة الأرض ومدينة الله)- العناية الإلهية تحكم سير التاريخ الإنساني، ويمكن توضيح النقاط السالفة الذكر كما يلي:

1-علم التاريخ في خدمة اللاهوت:

شغل التاريخ مكانة مرموقة، في فكر أوغسطين، فبوصف هذا الأخير رجل دين هدفه الدفاع عن العقيدة المسيحية وتقديم الأمثلة التاريخية من أجل اثباتها؛ بمعنى أنه وظف التاريخ من أجل إثبات الحدث الديني العقائدي، ومن الأمثلة التي اعتمدها بوصفها أدلة تاريخية في إثبات العقيدة المسيحية، عبر إدراج التاريخ المقدس في التاريخ الإنساني، وإلا بقي هذا التاريخ المقدس أشبه بالقصة الأسطورية منها:

أ-ولادة عيسى: فقد ولد في عهد بونس بيلات (ponce pilate) .
ب-قيام عسى بعد الصلب: وقام في اليوم الثالث لموته، في زمن الإمبراطور أغسطس، وكان ذلك على أرض فلسطين
ج-النبوءة بظهوره: لقد تنبأ الكثير من الأنبياء، وتوقع بعض الملوك مجيء المسيح .

تجدر الإشارة إلى أن أوغسطين قد طبق التصور اللاهوتي على تفسير الحقيقة التاريخية؛ إذ أن أحداث الماضي ورموز الحاضر تحتاج لتأويل من قبل المؤرخ لتكشف له عن الحقيقة الكلية التي تستر وراءها، وما هذه الحقيقة الكلية إلا حقيقة تاريخ البشرية منذ الخلق حتى اليوم، بل وحتى الأبد في الحياة كما أرادها الله .

اعتبر أوغسطين-انطلاقا من عقيدته المسيحية-أن التاريخ كعلم لن تكون له وظيفة سوى خدمة العقيدة المسيحية، وهذا ما دفع أوغسطين إلى الاهتمام بالتاريخ أصلا، خاصة بعد الانحطاط الذي أصاب الرومان، فاعتقد الناس في ذلك الوقت، أن الديانة المسيحية هي المسؤولة عن هذا الانحطاط، فراح في كتابه " مدينة الله " ينفي هذا الادعاء، قائلا: " لما اجتاح القوط الرومان سنة 410 م، لم يكن غير طبيعي من الوثنيين، أن يعزو هذه الكارثة إلى هجر الناس للآلهة القديمة، قائلين أن روما قوية ما بقيت عبادة " جوبتير " قائمة، أما وقد أدير الأباطرة عن عبادته، فلم يعد يحمي أتباعه الرومان، وكانت هذه الحجة الوثنية تتطلب ردّا، فكان كتاب " مدينة الله" الذي كتب جزءا جزءا، ما بين: 412-427 م هو الرد الذي تقدم به " أوغسطين " .

والتفسير الذي قدمه أوغسطين لسقوط روما، يتمثل في الانحلال والفساد الأخلاقي الذي عم المجتمع الروماني، بسبب الديانات الوثنية التي سادت روما، تلك الديانات التي لا علاقة لها بتطوير الجوانب الأخلاقية في الإنسان .

2-التقسيم الثنائي للتاريخ/ مدينة الأرض ومدينة الله:

لقد جاء أوغسطين بتقسيم للتاريخ، يختلف عن التقسيم اليوناني (عصر ذهبي، عصر برونزي)، فقد قسم التاريخ من منطلق اللاهوت المسيحي إلى قسمين: قسم ابتدأ من آدم، وقسم ابتدأ مع ظهور المسيح عليه السلام، كما قسم تاريخ البشرية إلى مدينتين: مدينة الأرض، والتي تشمل الإمبراطورية الأشورية والإمبراطورية الرومانية . ومدينة الله، التي تشمل عصر سيطرة الديانة المسيحية في أوروبا .

أراد أوغسطين من خلال هذا التقسيم، أن يثبت أن التاريخ الإنساني سائر إلى مدينة الله، بعد ظهور المسيح، لذلك نلاحظ أن هذا النوع من الكتابة التاريخية، التي سادت في القرون الوسطى، والتي هيمن فيها العقل الديني على التاريخ، أدت إلى القضاء على الجوانب العقلية في كتابة التاريخ، كعلم ينتمي إلى المعرفة الإنسانية .

3-العناية الإلهية تحكم سير التاريخ:

إن أبرز إسهام لأوغسطين في فلسفة التاريخ، يتمثل في فكرته عن العناية الإلهية، فقد بحث عن الذي يقع وراء التاريخ وحوادثه .

التاريخ من وجهة نظر أوغسطين، لا تحكمه الصدفة العمياء، وإنما هو خاضع لمشيئة الله وعنايته وإرادته المطلقة، منذ خلق آدم إلى لحظة بعث المسيح، وتشير نظرية العناية الإلهية إلى أن التاريخ، مسرحية ألّفها الله ويمثل أدوارها الإنسان؛ أي أن وقائع التاريخ، تخضع لمشيئة الله، بل العناية الإلهية هي التي تشكلها على نحو ما هي عليه، يقول أحمد محمود صبحي: " فالإيمان بالعناية الإلهية في التاريخ، يقتضي الإيمان بالله، ومن ثم فإنها ليست مجرد نظرية، ولكنها ترقى إلى مستوى الاعتقاد، إذ لابد من تدخل محكم من الله الحكيم، ليخطط للإنسان العاجز عن فعل الخير، لنفسه، ولولا هذا التدخل الإلهي، لأصبح التاريخ كومة من عصور متراكمة، من عبث ومأساة رهيبة، دون بداية معنوية أو نهاية مقبولة " .

وفي الأخير، رأى أوغسطين، أن الكنيسة هي التي ستقيم مدينة الله في الأرض، تلك المدينة التي سينتشر فيها العدل والاحترام وحقوق الإنسان .

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية — الموسم الجامعي:2023/2022
قسم العلوم الاجتماعية — المستوى: ثانية فلسفة
المقياس: فلسفة التاريخ — الأستاذ: عبد الله زين

المحاضرة الرابعة: الأبطال والتاريخ (دور الأبطال في صناعة الحدث التاريخي- فيكو -)

تمهيد:

بعد عصور الظلام التي سادت أوروبا في العصور الوسطى، وهيمنة النظرية المعرفية المسيحية على أشكال التفسير العلمي والفلسفي، فإنه مع بداية القرن الخامس عشر، بدأت تباشير نهضة حضارية تلوح في الأفق، تمثلت إحدى ركائزها: في التطور العلمي والمعرفي، خاصة مع روح الفلسفة العقلانية لدى " رينيه ديكارت "، والمنهج العلمي التجريبي مع " فرنسيس بيكون "، و" دفيد هيوم "، والرياضيات والفيزياء مع " ليبنتز" و " نيوتن " و " غاليليو " .

قلبت هذه المعارف العلمية الجديدة الرؤية المسيحية التي ظلت سائدة لقرون، وبدأت تتشكل معالم رؤية جديدة إلى العالم، خاصة مع التطورات التي أدخلتها حركة الإصلاح الديني على علم اللاهوت المسيحي، على يد كل من " مارتن لوثر " و " كالفن "، وبداية تقويض العلم للعقائد الراسخة للمسيحية حول الطبيعة والإنسان .

إن حركة النهضة الأوروبية التي انطلقت من إيطاليا منذ القرن الرابع عشر الميلادي، واستمرت حول قرنين من الزمن، حرّرت الإنسان الأوروبي من سلطان الكنيسة ورجال الدين، ومن الفلسفة المدرسية التي سادت في العصور الوسطى، فكيف انعكس كل ذلك على تفسير التاريخ خلال هذه الفترة ؟ وعلى يد من ظهر تفسير للتاريخ يتجاوز التفسير اللاهوتي عند أوغسطين ؟ وما طبيعة هذا التفسير الجديد للتاريخ ؟

في هذا الجو الثقافي المشحون، والروح الفلسفية الجديدة التي اجتاحت أوروبا، بدأت على مستوى التاريخ وفلسفته تتبلور فكرة تخليصه من الرؤية اللاهوتية المسيحية القائمة على فكرة الفداء . وفق هذه الرؤية الجديدة للتاريخ، يعتبر " جيوفاني باتيستا فيكو " Vico Giam batista(1668-1744 م) الفيلسوف الإيطالي، أول من أسس علم التاريخ الوضعي، في الحضارة الغربية الحديثة، على الرغم من أنه لم يتخلص كلّية من البعد اللاهوتي في دراسة الوقائع التاريخية، إلا أنه وضع منهجا لمعالجة الوقائع التاريخية من زاوية عقلية محضة، بدلا من الاكتفاء بالتاريخ الذي تحويه النصوص المسيحية المقدّسة وشروحها .

إن شهرة " فيكو " العلمية، قد قامت على ما عرضه في كتابه " العلم الجديد "، من آراء حول الاجتماع الإنساني وفلسفة التاريخ ومناهج البحث العلمي في التاريخ .

1-لمحة عن حياة فيكو ومؤلفاته:

جيوفاني باتيستا فيكو، فيلسوف إيطالي ولد بنابولي سنة 1668م، تولى تعليم نفسه بنفسه، فتعمّق في الأدب والفلسفة والحقوق، دون اتباع برنامج أكاديمي ثابت، درّس في جامعة نابولي وعمل بنشاط، لكنه لم يستطع تجنّب الفقر والمرض، فأجبر على إعطاء دروس خاصة والقيام بأشغال مضنية، توفي سنة 1744 م .

ترك " فيكو " عدة مؤلفات، منها: انفعالات يائس، الكتاب الميتافيزيقي، القانون الكلي، في الحب البطولي، في توازن الجسم الحي، العلم الجديد في الطبيعة المشتركة بين الأمم (1725 م) .

2-فلسفته العامة:

تتلخص فلسفة " فيكو " في نقطتين بارزتين هما:

* يرى " فيكو " أنه مادام العالم المدني من صنع البشر، فيجب القدرة على إيجاد المبادئ له، في التعليلات الخاصة بعقلنا الإنساني ذاته .

* هذا التصريح الذي يرتكز عليه " العلم الجديد " يفتح للفلسفة عالم التاريخ، الذي ترك كثيرا تحت رحمة علماء الآثار، وبذلك كان " فيكو " من أبرز الداعين للتفلسف في التاريخ .

3-فلسفة التاريخ عند فيكو:

بسط " فيكو " نظريته في فلسفة التاريخ، من خلال كتابه " العلم الجديد في الطبيعة المشتركة بين الأمم "، ويعتبر بعض المفكرين أن " فيكو " هو أول من أرسى قواعد فلسفة التاريخ في العصر الحديث، بل يصفه " جول ميشليه " بأبي فلسفة التاريخ . إن دوره في فلسفة التاريخ شبيه بدور " فرنسيس بيكون " في العلم التجريبي، وبدور " أوجيست كونت " في علم الاجتماع . تتضح رؤية " فيكو " في فلسفة التاريخ في النقاط الآتية :

أ-فيكو وتأسيس علم التاريخ الوضعي:

يعتبر " فيكو " مؤسس علم التاريخ الوضعي في الحضارة الغربية الحديثة، من خلال كتابه " العلم الجديد " . قدّم " فيكو " قواعد منهجية لدراسة التاريخ، وقد كانت لها أهمية بالغة في نشأة علم التاريخ عنده، حتى أن " آلبان جريجوري ويدجري " يقول عنه:« أن فيكو قد قام فعلا بتمهيد الطريق إلى ذلك، بإدخاله بعض طرق العمل، وباقتراحه بعض المبادئ العامة، فهو إذا يبرز أكثر كأحد مؤسسي علم التاريخ » .

كما يتجلى اسهام " فيكو " في تأسيس علم التاريخ في تأكيده على ضرورة التمييز بين المناهج التي تستخدم في العلوم الإنسانية والمناهج التي تستخدم في العلوم الطبيعية، ففي التاريخ، الموضوع هو الإنسان، حيث يدرس المؤرخ تعبيرات الإرادة الإنسانية، ومن ثم يستطيع المؤرخ من خلال إنسانيته أن يستوعب أفعال الإنسان وأن يفهمها ويتآلف معها .

لقد سعى " فيكو" لبناء منهج علمي في التاريخ، يسهم في دراسة الأحداث الماضية دراسة موضوعية، كما رأى " فيكو" ضرورة أن تسهم العديد من العلوم في بناء هذا المنهج، من بينها : علوم اللغة، كما رأى " فيكو " أن التاريخ من صنع الإنسان، وبذلك بدأ يخلّص التاريخ من التفسير اللاهوتي المسيحي .

ب-فيكو ونقد أوهام المؤرخين:

بنفس الطريقة التي تناول بها " فرنسيس بيكون" في كتابه " الأورغانون الجديد " الأوهام التي يقع فيها الباحثون في مجال العلم التجريبي، صاغ "فيكو" مجموعة من الافتراضات التي قع فيها المؤرخون عند إجراء أبحاثهم ودراساتهم، سمّاها " بالأوهام " التي تحجب عنهم الرؤية الموضوعية للأحداث التاريخية . هذه الأوهام عبارة عن مجموعة مسلّمات يسلّم بها العقل الإنساني دون تمحيص ونقد، وتتمثل هذه الأوهام فيما يلي:

- **وهم التهويل والتفخيم:** ويعني تمجيد المؤرخ لماضي أمته، والتركيز على جوانب القوة والثراء فيها.
- **غرور الأمم:** محاباة الأمم لنفسها عند الحديث عن ماضيها .
- **وهم الثقافة الأكاديمية:** اعتقاد المؤرخ بأن من يؤرخ لهم، هم أناس من طراز العلماء .
- **وهم التعاقب العلمي للأمم:** اعتقاد المؤرخ بأخذ الأمم عن بعضها ضرورة، إذا تشابهت .
- **وهم الاقتراب:** اعتقاد المؤرخ بأن الأجيال السابقة أكثر علما منا بالنسبة إلى العصور قريبة العهد من عصرهم، يرجع هذا الوهم إلى تصور التاريخ كذاكرة الإنسان، كلما كان موضوع التذكر أقرب عهدا، كان أكثر ثباتا ووضوحا في الذاكرة .

ج-فيكو والتأسيس لفلسفة التاريخ:

لقد دعا " فيكو" إلى ضرورة أن يستعين المؤرخون بفقه اللغة والفلسفة في التأسيس للمعرفة التاريخية، وبالتالي يعدّ أول من دعا إلى النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية في العصر الحديث، وهذه النظرة الفلسفية للتاريخ هي جوهر فلسفة التاريخ .

يرى " فيكو" أن عملية التفسير التاريخي تتطلب تضافر ثلاثة مباحث معرفية هي: اللغة والفلسفة وعلم التاريخ، فمن الضروري على المؤرخ أن يتقن لغات المجتمعات التي يؤرخ لها لفهم رواياتها التاريخية، كما يفيد ذلك في عملية المقارنة بين المصادر التاريخية . أما الفلسفة فتزوّد المؤرخ بمناهجها التأملية العقلية، كيفية صنع الإنسان للتاريخ .

لذلك على المؤرخين- إذا أرادوا الوصول إلى الحقيقة التاريخية - أن يستعينوا بهذه المباحث الثلاثة مجتمعة، ليفسّروا مسار التاريخ الإنساني .

قدّم " فيكو" رؤية تفسيرية فلسفية للتاريخ العالمي، تتمحور حول فكرة التعاقب الدوري للتاريخ؛ أي وقوع التاريخ بين نقطة الميلاد الحضاري ونقطة أفوله، نظرا لتشابه خصائص التاريخ رغم الاختلافات الجزئية بين الأمم .

يمكن إيجاز تبرير " فيكو" لنظرية التعاقب الدوري في نقاط هي:

-هناك تشابه بين العصور التاريخية (تشابه فترة هوميروس في التاريخ اليوناني، مع العصور الوسطى الأوروبية، من حيث: الملامح، وعصر البطولة، وحيث الحكم ذو الطابع الأرستقراطي، كما يغلب على الأدب طابع الشعر الغنائي، وعلم الأخلاق طابع الولاء) .

-إن كل فترة تاريخية تتبع أخرى على الخط نفسه، فترات البطولة تعقبها فترات يسود فيها الفكر على الخيال والنثر على الشعر، والصناعة على الزراعة، وأخلاق السلم على أخلاق الحرب، وهذه يتبعها تدهور إلى البربرية .

-إن الإنسانية لا تتقدم خلال أدوار التاريخ في خط مستقيم، كما أن التعاقب الدوري لا يعني أنها ترتد إلى البداية نفسها، بل أن مسارها في خط يوحي كما لو كانت تدور حول جبل لتصل إلى القمة، كل دورة تعلو التي سبقتها، ومن ثم ما يبدو أنه تكرار ليس إلا موقفا أكثر ارتفاعا تستطيع الإنسانية أن ترى آفاقا أكثر اتساعا .

-يرى " فيكو" أن تاريخ كل أمة محكوم بتعاقب جملة من المراحل أو الأطوار، وعليه قسّم "فيكو" التاريخ إلى ثلاث مراحل هي: مرحلة الألوهية، مرحلة البطولة، المرحلة البشرية أو البربرية .

د-فيكو ومراحل تطور التاريخ الإنساني:

لقد سعى " فيكو" من خلال دراسته لتاريخ الحضارات القديمة (المصرية، اليونانية، الرومانية)، إلى صياغة قانون يحكم تطور التاريخ الإنساني، وقد توصل إلى أن الحضارات تمر بثلاث مراحل هي:

-النشأة: من الهمجية إلى الأديان .

-التطور: من الأديان إلى حياة اجتماعية منظمة .

-التدهور والسقوط: من حياة اجتماعية منظمة إلى السقوط .

استقى " فيكو " هذه الدورة التاريخية التي تمر بها كل الأمم والحضارات، من التقسيم الذي وضعه المصريون القدماء، واعتبر هذا التقسيم مسلّمة لا جدال فيها، وتتمثل هذه المراحل فيما يلي:

***المرحلة اللاهوتية:**

تتميز هذه المرحلة بسيطرة التفكير اللاهوتي، في كل عمليات التفسير والتعليل، وبتحكم رجال الدين في النظام السياسي؛ فهم من يديرون شؤون الدولة، ويكون الحكم استبداديا بيد الكهنة الذين يمثلون رجال الدين بمقتضى قوانين إلهية يتلقونها عن طريق التنبؤات والتكهنات .

***المرحلة البطولية:**

تتميز هذه المرحلة بظهور أبطال يجمعون من الخوارق العظام، مما يجعل الناس يصفونهم بأنصاف الآلهة، يؤدون أدوارا بطولية كبيرة خاصة في الحروب والغزوات، ويسهمون في بناء الدولة وتقوية شوكتها، رغم استبدادهم بالحكم، وينسب التقدم في هذا العصر إلى أفراد عظام من المشرّعين والحكماء والفلاسفة، أمثال: أفلاطون و روميلوس وغيرهم .

***المرحلة البشرية:**

تتميز هذه المرحلة بسيادة القانون داخل الدولة، وبظهور أنظمة شبيهة بالنظم الديمقراطية، وتكون هناك مساواة في الحقوق أمام القانون، بحيث يحصل كل إنسان على حقوقه الطبيعية المشروعة في ظل حكومات ديمقراطية شعبية .

على ضوء المراحل السالفة الذكر، ميّز " فيكو" بين ثلاث حكومات أو أنظمة تحكم المجتمعات هي:

-الحكومة التيوقراطية: حكم الكهنة ورجال الدين، وتستند على نظرية دينية (وثنية أو سماوية) .

-الحكومة الأرستقراطية: حكم النخبة من الأفراد المبدعين .

-الحكومة الديمقراطية: وفيه يحكم الشعب نفسه بنفسه، عبر أدوات التعبير أو المؤسسات (الجمهورية أو الملكية المقيدة) .

بحسب رأي " فيكو " مرّت كل الأمم بهذه المراحل الثلاث، ثم سقطت في البربرية والتوحش؛ ففي المرحلة الأخيرة، لما تسود الديمقراطية يتطرّف أفراد المجتمع في المطالبة بحقوقهم وتزداد أشكال الصراع الداخلي بين أفراد المجتمع، فتتفكك أواصر المواطنة والقانون، ويسود الانحلال في الأمة، وبالتالي تسود البربرية في المجتمع، ومعها تنهار الدولة ويعيد التاريخ دورته مرة أخرى .

***نقد وتقويم لنظرية فيكو في فلسفة التاريخ:**

إن إسهام " فيكو" في فلسفة التاريخ واضح للعيان؛ فهو أول من قال بأن الإنسان هو صانع التاريخ (في أوروبا)، وهو أول من تجاوز فكرة التقسيم اللاهوتي المسيحي للتاريخ في الحضارة الغربية، رغم أنه لم يفصح عن آرائه بشكل مباشر في وجه رجال الدين والكنيسة؛ بحيث تظهر بعض أفكاره منسجمة مع تعاليم المسيحية وأفكار رجال الدين .